



الرومانسية كمذهب أدبي وفكر تنويري

بدرالدين القاسمي

باحث بسلك الدكتوراه - كلية الآداب والفنون - جامعة ابن طفيل - المغرب
badreddine.e@yahoo.com

DOI: <https://doi.org/10.31559/JALLS2020.2.2.4> تاريخ استلام البحث: ٢٠٢٠/٥/٣٠ تاريخ قبول البحث: ٢٠٢٠/٦/٢٠

الملخص:

تهدف هاته الورقة إلى الإحاطة بالمدرسة الرومنسية كنظرية أدبية ورؤية فلسفية، وذلك من خلال الارتكاز على المعطى التاريخي. وقد خلصنا إلى أن تعريف الرومنسية يطرح إشكالية معرفية، من جهة تشكل المذهب بشكل تدريجي وفي أماكن متفرقة في أوروبا، ومن جهة أخرى تداخل مجموعة من المصادر في تشكيل معالمه ومبادئه، منها ما هو فكري فلسفي محض، ومنها ما هو تاريخي ومجتمعي صرف. وعموماً ارتبط هذا المذهب بالثورة البرجوازية في ولادته بدعوته للتحرر من كل القيود التراثية متجاوزاً المحدود إلى اللامحدود. لكن مع ما عاشته فرنسا من تحولات تمثلت خصوصاً في غياب الاستقرار السياسي والإجهاز على مكاسب الثورة ومبادئها أصبح ضرورياً العودة إلى الواقع والانخراط في القضايا المجتمعية الراهنة.

الكلمات المفتاحية: الرومنسية؛ الذات؛ الطبيعة؛ الخيال؛ الثورة.



المقدمة:

لا يمكن اعتبار الرومنسية حركة أدبية إنما هي نظرية فنية ومذهب فكري تجديدي جاء كردة فعل على التراث الكلاسيكي المتسم بالقواعد والمبادئ الصارمة المستسقة من الذاكرة الإغريقية والخاضعة لسلطة العقل (Jean et Pierre, 2007) والنافية للوجدان. وهي أيضاً استجابة لواقع حضاري متأزم وبشع دفع بالذات إلى الهروب من المحدود إلى اللامحدود مطلقة بذلك العنان للخيال والذات. وبالنظر لكونها نشأت بشكل متدرج ومتباين في أجزاء كثيرة من أوروبا خلال حوالي قرن من الزمن، فانه من الصعب الإحاطة بالمفهوم في شموليته.

إشكالية البحث:

في الغالب ينظر للرومنسية على أنها حركة أدبية فقط تقتصر على الشعر والرواية، لكن بوضع المفهوم داخل إطاره التاريخي والفكري يتضح أننا بصدد نظرية وتصور فكري ورؤية فلسفية حديثة.

أسئلة البحث:

سنحاول من جهة وضع مفهوم الرومنسية في سياقه التاريخي والفلسفي، والبحث عن أهم العوامل المساهمة في نشأته. أما من جهة أخرى سنعمل على إبراز أهم خصائص هذا المذهب على المستوى الأدبي.

أهمية البحث:

في تقديرنا تكمن قيمة وأهمية هاته الورقة في محاولتها تحديد مفهوم الرومانسية كمذهب أدبي وفكر تجديدي وذلك من خلال ربط نشأتها بمجموعة من الظروف سواء تاريخية اجتماعية أو فلسفية فكرية التي ساهمت بشكل كبير في تشكيل لبناتها الأساسية. بالإضافة، إلى إحاطتنا الاهتمام بخصائصها الجمالية والموضوعاتية المختلفة والمتنوعة غاية استيعاب مدى إسهامها في خلق رؤى جديدة للإبداع بعيداً عن القوالب الكلاسيكية المعقدة والصارمة الكابحة للوجدان.

منهجية البحث:

حاولنا في هذا البحث اعتماد منهج سوسيو تاريخي، حيث ربطنا نشأة الرومانسية وأقولها بجملة من العوامل ذات الطابع التاريخي والثقافي. كما أننا عملنا على الإحاطة بالجوانب والخصائص الجمالية والفنية لهذا المذهب.

الإطار النظري:

صدرت حول الرومانسية مجموعة من الدراسات بمختلف اللغات، من أهمها دراسة ليول لفارغ Paul Lafargue بعنوان "أصول الرومانسية: دراسة نقدية في المرحلة الثورية" (Paul, 1896). وكتاب "دراسة حول الرومانسية" (Jean, 1970) لكتاتيه Jean-Pierre Richard. بالإضافة إلى كتاب باتريك أدلين Patrick Eudeline بعنوان: "غوتي: الرومانسية السوداء من بودليير مارلين مونصو". وهي في مجملها دراسات حاولت مقارنة الرومانسية على أساس أنها حركة أدبية من خلال التركيز على مجموعة من التجارب الإبداعية لروادها. وعلى عكس ما ذهب إليه هاته الدراسة، فإننا نأمل من خلال هذا المقال أن نعرف بالرومانسية على أنها إلى جانب كونها تيار أدبي فهي أيضاً امتداد لفكر تنويري تجديدي.

سياق النشأة الظهور:

ارتبطت الرومانسية في نشأتها في أوروبا عموماً وفرنسا على وجه الخصوص بعدة ظروف، فمن جهة وفرت النظريات الفلسفية الجديدة أرضية فكرية لولادة نفس إبداعي متحرر، مثلاً مع جون جاك روسو J.J. Rousseau الذي كان يطمئن للطبيعية (Jean, 2002) باعتبارها مكاناً يخلو من الظلم والقوانين الجائرة والتفاوت الطبقي، وفلسفة فولتير Voltaire ومعاصريه من ديدرو Diderot المتشعبة بالتححرر الفكري من المعتقدات الخرافية والعبودية، والتي ساهمت بشكل كبير في تغذية ذهن الفرنسي، بالإضافة إلى نظرية التعبير، للفيلسوف الألماني إيمانويل كانط Emmanuel Kant، التي ترى أن الفن إدراك شعوري وتملك عاطفي لا يحتكم لصيغة عقلانية أو منطقية. دون أن نغفل الدور الذي لعبه دعاة التجديد والانعتاق من قيود المحاكاة والتقليد، مما يعرف بمعركة القدماء والحداثيين خلال نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر. وقد ذكر الفيلسوف الفرنسي برتراند راسل Bertrand Rossel بهذا الصدد:

"إن بين الحركة الرومانتيكية وحركة التنوير علاقة تذكرنا في نواحٍ معينة بالنظرة الديونيزية في مقابل الأبولوجية. فجزورها ترجع إلى ذلك التصور المصطبغ بصبغة مثالية، والذي كونه عصر النهضة عن اليونان القديمة؛ وقد تطورت الحركة في فرنسا خلال القرن الثامن عشر بحيث أصبحت عبادة للانفعالات، وكانت في هذا التطور تمثل رد فعل على الموضوعية الباردة المترفعة لدى المفكرين العقلانيين" (برتراند، ١٩٨٣)

أما على المستوى الاجتماعي والسياسي، فالمذهب وليد الثورات البرجوازية التي اكتسحت أوروبا، خصوصاً الثورة الفرنسية التي اندلعت سنة ١٧٨٩ كصرخة مناهضة للاستبداد والاستغلال والضرائب المجحفة التي أثقلت كاهل المواطنين، ومنذدة أيضاً بالفساد والامتيازات الممنوحة للنبلاء المكرسة للاعدالة واللامساواة، إذ أن الطبقة البرجوازية رأت أن طبقة النبلاء تستنزف خزينة الدولة في الإنفاق المسرف والولائم الفخمة. وهكذا نال الشعب بعد الثورة دفعة قوية نحو الحرية، وأحاط بالاكليروس^١ وألغو الامتيازات الإقطاعية. لتبرز نخبة جديدة تسلمت مقاليد السلطة، وأفرجت عن أول وثيقة آنذاك تدعو إلى احترام حقوق الإنسان والمواطن. وقد رافق هذا التطور تصاعد القوميات وشعور الأدباء بغنى الألوان المحليّة وضرورة العودة إلى منابع الحيّة للإلهام. من جهة جاءت الرومانسية كرد فعل على الميكانيكية والمادية التي أفرزتها الثورة الصناعية وما رافقها من إفراغ للقيم المجتمعية والثقافية من محتواها الأخلاقي، ومن جهة أخرى جاءت كردة فعل على المدرسة الكلاسيكية التي سعت إلى إعادة إحياء التراث اليوناني عبر محاكاته من خلال تطبيق القوالب الأدبية والقواعد النقدية التي وردت في كتاب فن الشعر وفن الخطابة لأرسطو معتبرين أن العقل هو المعيار لفلسفة الجمال في الأدب.

الإرهاصات الأولى لنشأة الحركة بأوروبا:

من السائد أن الرومانسية الفرنسية تأثرت بنظيرتها الألمانية، فالرائج أن بعض النقاد والأدباء الألمان يرجح أن لهم الفضل في الترويج والدعوة إلى الذوق الأدبي الجديد سواء من خلال تطوير الكلاسيكية أو الانسلاخ عنها. لكن حين نتأمل في تاريخ الأفكار الأدبية نجد أن فرنسا كانت تملك كل المقومات سواء الفكرية أو الثقافية لتحمل في رحمتها خلجات الرومانسية رغم أنها تشربت لسنوات طوال

^١ مصطلح اطلق على الطبقة الدينية بأوروبا.

من أصول المذهب الكلاسيكي. وفي تقديرنا الشخصي تعود ملامح التجديد في الأدب الحديث إلى كورنيلي في مسرحيته "لوسيد"^٢ سنة ١٦٣٦، حيث تجرأ على اختراق مجموعة من أعراف المسرح اليوناني القديم، لتنتقل بعده خصومة بين القدماء بقيادة بوالو Boileau والمحدثين المتشبهين بفكرة التحرر من قبضة العبقريّة اليونانية بزيادة شارل بيرو المعروف بمجموعته الحكواتية^٣ les contes de ma mère Oye التي كان يدعي من خلالها أنها ثلاثم العبقريّة الشعبيّة الحديثة لفرنسا بغية تعويض الميثولوجيا اليونانية.

عموماً بروز الرومانسية كمذهب لم يكن عفويّاً أو وليد اللحظة إنما تم التأسيس له عبر سنوات عدة، من خلال التراكم الزاخر بالأعمال والنظريات الأدبية لمجموعة من المفكرين خصوصاً المتنورين منهم، ونخص بالذكر:

- جون جاك روسو J.J. Rousseau: وهو واحد من رموز فكر الأنوار الذي لعبت كتابته دوراً مهماً في تغذية الوعي الفرنسي قبيل الثورة وما بعدها. وكانت روح الرومانسية تجري في عروقه وبالرغم من إيمانه بالعقل والفكر والجدل، إلا أنه انعطف في كثير من كتاباته من قبيل "Émile ou l'éducation" و "Confessions" كما يظهر في قوله:
- "مرزمن كنت أعتقد فيه أن البحث عن الحقيقة وحده كاف لأن يكون شرف الإنسانية؛ وكنت أحتقر الإنسان العادي الذي لا يُدرك شيئاً؛ وقد دفعني روسو إلى الطريق الصحيح؛ لقد تلاشى هذا الحكم الأعمى وتعلمت احترام الطبيعة الإنسانية، ولقد اعتبرت نفسي أقل فائدة بكثير من العامل البسيط، إذ لم أعتبر أن فلسفتي من الممكن أن تُساعد البشر على إثبات حقوقه الإنسانية" (إبراهيم، ١٩٨٨)

وكان لروايته العاطفية "La nouvelle Héloïse" أثر كبير في تطوير حركة ما قبل الرومانسية، حيث تتغنى بالمشاعر الوجدانية للشخص. ففي تحكي قصة عشق دارت بين "الوزير" المنحدرة من الطبقة النبيلة ومعلمها "سان برو" من أصول متواضعة. مما حتم عليهما إبقاء علاقتهما سرية، نظراً طبعاً للتفاوت الطبقي بينهما. وبما أن القناعات المجتمعية ترفض مثل هاته العلاقات، قرر سان بيرو مغادرة سويسرا إلى باريس ثم إلى لندن. فبدأت من هنا مراسلات بينهما، لتكتشف عائلتها بهاته العلاقة، فأقنعتها بالزواج برجل آخر، ولكونها لم تستطع نسيان حبيبها اعترفت لزوجها بهذا السر.

- بومارشيه Beaumarchais: عرف بأعماله الدرامية خصوصاً مسرحية le mariage de figaro، le barbier de Séville وأيضاً la mère coupable، حيث حاول المزج بين الحب والمرح في قالب درامي ساخر (موسوعة لاروس).
- جيرمين نيكرو: المعروفة باسم مدام دوسطيل Madame de Staël، كان لكتابتها (من الأدب) الصادر عام ١٨٠٢ ومؤلفها (من ألمانيا) الصادر عام ١٨١٠ دور كبير في التنظير الرومانسي، إذ كانت لها نزعة واضحة نحو الحرية.

أعمدة الرومانسية بفرنسا:

أما عن أهم أعمدة التيار الرومانسي بفرنسا فنخص بالذكر:

- فيكتور هوجو Victor Hugo: عرف في فرنسا بكونه شاعراً ثم روائياً وأخيراً مسرحياً. صرح في مقدمة مسرحيته Cromwell أن للمؤلف الحق في عدم الانصياع لأي قاعدة غير قواعد خياله (Victor, 1912). جاء شعره غزيراً بزعة الوجدانية يفيض بالأحاسيس والعواطف إلى درجة المبالغة، بل لا يسع المرء أن يحمل كل المرارة المنبعثة من شكواه على محمل المعاناة الصادقة:

غداً...وقبيل الشروق سأمضي إليك

وأعرف أنك تنتظرين قدومي

وأعبرُ ذلك الجبل

وأجتاز تلك المروج ولن أتأخر عنك كثيراً

سأمضي أراقب ما في خيالي

ولست أبالي بما يتراءى ولا ما يضحّ

وحيداً غريباً ذراعاي مضمومتان ورأسي محدب

أسفاً... نهاري كليلي

ولن أتطلع نحو المساء يُساقط ذهباً

^٢ مسرحية مأساوية كوميدية قدمت لأول مرة بمسرح الماربه سنة ١٦٣٧. وكانت سبباً في قيام خصومة باتهام كتابها بعدم احترامه قواعد المسرح الكلاسيكي.

^٣ مجموعة تضم ثمانية حكايات صدرت سنة ١٦٩٧، وتعد واحدة من بين أنجح قصص الأطفال.

ولا للزوارق تأوي بعيداً إلى " هارفليير"
 وحين أجبنيك سوف أكلل قيرك
 بالأغصن اليبانة (Victor, 1993)

• لامرتين Lamartine: يعد ديوانه "تأملات شعرية" باكورة إبداعه، تناول فيه مختلف تجاربه. والمثير أن الدفق الشعري عند لامارتين يتحلّى بأهم خصائص الرومانسية، كون كتاباته نابعة عن تجربة شخصية تطبعها الذاتية إلى مدى بعيد. وتعد قصيدته "البحيرة" شهادة حية على ذلك:

أه يا بحيرة!

العامُ قد أنهى بالكاد مسيره

بالقرب من الأمواج الحبيبة

كانت سترها من جديد

انظري...

ها أنا قد جنّت وحيداً

لأجلس فوق هذا الصخر (Alphonse, 1820)

• ألفريد دو ميسي Alfred de Musset: من أبرز أشعاره الغنائية "رولاً" وهي أربع قصائد مطولة: (ليلة مايو، وليلة ديسمبر، وليلة آب، وليلة أكتوبر) وأجملها الأولى والأخيرة:

أحب! - هي الكلمة التي تفسحها الطبيعة

إلى الريح التي تحملها، إلى الطائر الذي يتبعها!

تنهد الظلام أن الأرض ستُدفعُ

عندما تقع في الليل الأبدى!

أوه! يُهمس بها في أجوائك المقدسة،

في نجوم الصباح، تلك الكلمة الحزينة والساحرة (Alfred, 1857)

الخصائص الفنية والجمالية:

إن أهم ما ميز التجارب الرومانسية سواء على المستوى الجمالي أو الفني، نستحضر ما يلي:

- رد الاعتبار إلى الذات عبر الاحتفال بالنفس البشرية والاهتمام بالوجدان والعواطف الشيء الذي جعل تصويرهم إيحائياً وصياغتهم اللغوية أنيقة رقيقة منسجمة مع الدفق الشعوري.
- الاحتفاء بالطبيعة المعبرة عن الحالة البدائية والفطرية الغريزية للإنسان والمغللة في الخيال والنفور من الواقع والهروب إلى عوالم متخيلة.

خلاصة: عن تلاشي الرومانسية

كانت الرومانسية نتاج فترة تاريخية مريرة وقلقة، فضلت فيها الأقلام الهروب من الواقع في اتجاه الطبيعة. فكان النقاد ينظرون إلى الرومانسيين على أنهم منطوون ذاتياً على أنفسهم، متغاضين عن مشاكل المجتمع وقضاياها. فالنزعة الرومانسية المبنية على التحرر أصبحت أكثر فردية وذاتية على حساب الجماعة والموضوعية. كما أن تعدد الاتجاهات داخل الرومانسية نفسها، وتضارب الآراء بين الأدباء حول مجموعة من المبادئ والمواقف بخصوص مسألة قيمة الخيال في الإبداع، وإمكانية معالجة الحرمان بالتوجه للطبيعة وغيرها، أدى إلى استنزاف هذا المذهب. هذا فضلاً عن بعض الأعمال الأدبية التي انحرفت عن النظام القيمي وتنافت مع التصور الكنسي إذ بدأ ينظر لها كسبب فاسد للأخلاق. وعلاوة على ذلك، لف الغموض حسب بعد النقاد المضامين الشعرية بسبب الاعتماد على لغة إيحائية ورمزية، دون أن ننسى الإشارة إلى أن جزءاً كبيراً من هاته المضامين نفسها جاء سلبياً و غارقاً في اليأس والتشرد الدائم والألم الحاد والعزلة والتشاؤم خصوصاً بعد الإجهاد على مكتسبات الثورة وأمالها. كما أنه كان لظهور مدارس أدبية جديدة من قبيل البرناسية^٤ والواقعية^٥ التي جاءت كرد فعل ضد الرومانسية دور كبير في تلاشي هاته الأخيرة.

^٤ مدرسة شعرية فرنسية ظهرت حوالي منتصف القرن التاسع عشر وكان طيوي في لغوتي رائدها وهو صاحب نظرية الفن من اجل الفن.

^٥ الواقعية تيار ادبي جاء كردة فعل على الرومانسية، يعتبر بلزك رائده.

المراجع:

أولاً: المراجع العربية:

١. أبراش، أ.، (١٩٩٨) تاريخ الفكر السياسي من حكم ملوك الآلهة إلى نهاية عصر النهضة، ط١ المغرب: شركة بابل للطباعة والنشر الطبعة الثانية.
٢. راسل، ب.، (١٩٨٣) حكمة الغرب، ط١ الكويت: مجلة عالم المعرفة.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

- [1] Guichet. J-L., *L'homme et la nature chez Rousseau, un homme absolument isolé ou détenteur déjà d'une certaine culture?* Revue des sciences philosophiques et théologiques (Tome 86), (2001), pp 69 à 84.
- [2] Hugo. V., *Œuvres complètes : Cromwell, Hernani*. Librairie Ollendorff. Volume 23, Théâtre, tome I (1912), pp 7 à 51.
- [3] Hugo. V., *Œuvres poétiques*, tome 2 : Les châtements, Les contemplations, Paris : Gallimard, (1993).
- [4] Jean-Charles Darmon. J-C. & Force. P., *Introduction*. Dans Revue d'histoire littéraire de la France. 107(2) (2007), 261 à 271.
- [5] Lafargue.P., *Les origines du Romantisme. Étude critique sur la période révolutionnaire*, Le Devenir social, 2e année, n° 7, juillet (1896), p. 577 à 607.
- [6] Lamartine. A., *Les méditations poétiques*, Paris : Les éditions seuil, (2005).
- [7] Musset. A., *Poésies nouvelles (1836-1852)*, Charpentier, (1857), pp 10 à 27.
- [8] Richard. J-P., *Études sur le romantisme*, Paris : Éditions du Seuil, (1970).



Romanticism as literary Doctrine and Enlightenment Thought

Badreddine Al Qasimi

PhD Researcher, College of Arts and Arts, Ibn Tufail University, Morocco
badreddine.e@yahoo.com

Received Date : 30/5/2020

Accepted Date : 20/6/2020

DOI : <https://doi.org/10.31559/JALLS2020.2.2.4>

Abstract: The concept of romanticism poses an epistemological obstacle, on the one hand this doctrine was formed gradually and in separate places in Europe, and on the other hand, multiple sources, philosophical-intellectual or sociohistoric, overlap in the formation of its specificities and principles. However, this doctrine remains linked to the bourgeois revolution in its birth, calling for the release of all traditional restrictions, crossing the borders of infinity. But with the transformations that France has known, notably the absence of political stability and the evil of the century. The return to reality has become as necessary as the commitment to current societal challenges.

Keywords: *romance; self, nature, imagination, revolution.*

References:

- [1] Abrash. A., Tarykh Alfkr Alsyasy Mn Hkm Mlwk Alalh Ela Nhayh 'sr Alnhdh, T1 Almghrb: Shrkt Babl Ltba'h Walnshr Altb'h Althanyh, (1998).
- [2] Rasl. B., Hkmh Alghrb, T1 Alkwyt: Mjlt 'alm Alm'rfh, (1983).
- [3] Guichet. J-L., *L'homme et la nature chez Rousseau, un homme absolument isolé ou détenteur déjà d'une certaine culture?* Revue des sciences philosophiques et théologiques (Tome 86), (2001), pp 69 à 84.
- [4] Hugo. V., *Œuvres complètes : Cromwell, Hernani*. Librairie Ollendorff. Volume 23, Théâtre, tome I (1912), pp 7 à 51.
- [5] Hugo. V., *Œuvres poétiques*, tome 2 : Les châtiments, Les contemplations, Paris : Gallimard, (1993).
- [6] Jean-Charles Darmon. J-C. & Force. P., *Introduction*. Dans Revue d'histoire littéraire de la France. 107(2) (2007), 261 à 271.
- [7] Lafargue.P., *Les origines du Romantisme. Étude critique sur la période révolutionnaire*, Le Devenir social, 2e année, n° 7, juillet (1896), p. 577 à 607.
- [8] Lamartine. A., *Les méditations poétiques*, Paris : Les éditions seuil, (2005).
- [9] Musset. A., *Poésies nouvelles (1836-1852)*, Charpentier, (1857), pp 10 à 27.
- [10] Richard. J-P., *Études sur le romantisme*, Paris : Éditions du Seuil, (1970).